حياة الامم بالتعلم

اطلعنا على خطبة بليغة لاحد رؤساء مجمع تقدم العلوم الاميركي تلاها في اجتماع ذلك المجمع الاخير جعل موضوعها لزوم البحث العلمي لحفظ كيان الامة وقال فيها ما خلاصتهُ

اذا شاءت الامَّة الاميركية ان لا تموت وتتلاشى وجب عليها ان تزيد قوةً وكفاءةً اجتماعيًّا وصناعيًّا وسياسيًّا واذا شاءت ان لا يعتدي عليها غيرها ولا تمل يدها بتمرُّض الاجانب لها او تسلُّطهم عليها فالواجب ان لا تتوكل ولا تترك امورها لتصاريف الزمن ولهذا السلم الذي ليس له سياج منيع من القوَّة

فقد رأينا امم اوربا ماسكةً بعضها بخناق بعض تجالد وتتقاتل كانها الوحوش الضارية لا تحجم عن قتل ولا عن تخريب ولا تأخذها رأفة ولا شفقة حرب ضروس ونار آكلة وقودها الرجال والاموال ورمادها شقاء تعجز عن تصوره العقول

ديست العهود ومزقت المواثيق وامتُهنت شرائع الله وشرائع الناس ولم تبقَ الأشريعة السيف. افلا يحتمل ان توجَّه بعض هذه القوى يومًا ما نحو اميركا فتفوِّق اليها سهام التزاة الطامعين في الاستعمار واذا حدث ذلك فهل نحن من المنعة في حرز حريز

كثيرون من قومنا لا يرون رأي القائلين بالتأهب للحرب حاسبين ان في الضعف قوَّة. ولا يُكسَّر الأَ الصلب وان علينا ان ندعو الناس الى التآخي لا ان نلبس عدة الحرب ونخرج الى ميدان القتال

لا شبهة ان الحرب مكروهة لذاتها ولا رغبة لنا فيها ولكن لا شبهة ايضًا ان الامة التي لا تستطيع ان تمنع اعتداء الغير عليها في هذا الزمن يزول شأنها ولا يبقى لها مقام بين امم الارض

ومن لا يذدْ عن حوضهِ بسلاحهِ يهدَّم ومن لا يتق الشتمَ يُشتمِ

فاول ما يُطلَب منا لانفسنا ونوع البشر عامَّةً ان نقي انفسنا ونجعل ابناءنا قادرين على وقاية انفسهم والاحتفاظ بما لهم من الحقوق والشرائع والقوانين

وعلى صحة افراد الامة وقوتهم تتوقف سلامتها و يتوقف استمرارها على السير في سبل الارتقاء. فلننظر الآن الى بعض الشواهد الدالة على ان قوتنا آخذة في الانحطاط عسى ان ذلك يلجئنا الى ان نطلب من حكومتنا تعيين لجنة مؤلفة من خمسة عشر رجلاً من اكبر رجال العلم واشهرهم تبحث في اسباب ضعفنا وتشير بما يزيل هذه الاسباب و يبلغنا القوة التي نحتاج اليها

ان التقدُّم في العلوم والفنون والاختراعات قد اراحنا من كثير من المشاغل العقلية والمتاعب الجسدية فاعطانا الصحة والراحة والرفاهة وسهَّل علينا اكتساب العلوم والفنون الى حدٍّ لم يخطر على بال اسلافنا. وازال من سبيلنا كثيراً من المخاطر واطال اعمارنا وذلك كلهُ من الفوائد التي نعترف بها شاكرين

ولكن المشاغل والمتاعب تغيرت من بعض الوجوه وزادت من غيرها وعمرانا لم يقتصر على جلب المنافع بل جلب ايضاً بعض المضار لانهُ عوَّدنا عادات تفضي الى المخاطرة والمجازفة وضعف الاجسام

الاَّ ان البعض ينظرون الى المنافع ولا ينتبهون للمضار فاذا رأوا قلَّة الوفيات وزيادة متوسط العمر حسبوا ان الامة آخذة في التوعدداً وقوةً ولكن لو انعمنا نظرهم لوجدوا ان قلَّة الوفيات ناتجة كلها تقريباً من قلة وفيات الصغار وهؤلاء كانوا يموتون باسراض عارضة تعرض لهم فقلَّت وفياتهم بمقاومة هذه الامراض لا بزيادة في قوة بنيتهم فكأنا قلنا وفياتنا لا بتقوية اجسامنا بل بتجنُّب بعض اسباب الموت

اننا نباهي بما نقتنيهُ من الغنى الوافر واسباب الراحة الناتجة عن تسهيل الانتقال والاعتماد على الآلات في عمل الاعمال . ولكننا افرطنا في ذلك فنتج عن افراطنا ان زادت مشاغلنا وصرنا نحاول ان نعمل كل اعمال الحياة ونجمع كل مسراتها في سنين قليلة فنفرط في الاكل والشرب واللعب كما نفرط في العمل فزاد ضعاف الابدان منا وزيادتهم مطَّردة

ثم ان شدة اعتماد افرادنا على انفسهم قوَّت فيهم الاثرة والانانية فصار الواحد منهم لا ينظر الى الامور الاَّ حيث تؤول الى راحتهِ ورفاهتهِ فداس القيود والقوانين التي تقيد حريتهُ الشخصية ولو كانت من قوانين الصحة . ومن استقلَّ بنفسهِ وما يعنيهِ الاَّ بها ابطل الاهتمام بامتهِ وحسب انهُ غير مديون لاحد بشيء فيخشى ان تطلبهُ بلادهُ في ساعة الشدة ليدافع عنها فلا تجد منهُ معيناً لانهُ فقد عاطفة الاجتماع والنعرة القوميَّة وصار همهُ كلهُ موجهاً الى راحتهِ ورفاهتهِ فما فائدة الامة من رجل مثل هذا

والناس الذين هذا شأنهم هم الذين يكثر فيهم الانتحار او قتل الغير لان قيمة الحياة زهيدة في عيونهم

ومما يجب ان لا نغضي عنهُ ان تفانينا في عدم اضاعة الوقت جعلنا شديدي الاهتمام ضيقي الاجسام لان الذي يخاف ان يضيع دقيقة من وقتهِ يبطل المشي والحركة فصرنا كنا

نُسرع في سيرنا ونجنّ في اعمالنا واقوالنا وابطلنا اساليب المعاشرة والمفاكهة القديمة وابطلنا معها التبصر واعمال الفكر وصرنا نوجز في كل شيء ونبدي احكامنا باسرع ما يمكن وتملكتنا ملكة الضجر والحدة فاثّرت في موازيننا العقلية وهذا سبب ما نراه من ازدياد التهيج العصبي. ولا بدّ من ان يؤثر هذا التهيج في اعضاء الجسم الرئيسة كالقلب والشرايين والكليتين ولاسيما في المجموع العصبي كله فكيف يقوى اناس اصيبوا بهذه الافات على دفع اعدائهم والذود عن حوضهم

وقد كان لتقليل الاعمال الجسدية اثر سيء في حياة الامة فان الملايين منا ولدوا من آباء عاشوا عيشة خلوية صحية لكنهم لم يقتفوا خطوات والديهم بل اقاموا في المكاتب والمخازن والمعامل حيث لا سبيل لاجهاد اجسامهم ولا لترويضها ولا لتشغيل عقولهم. وقد قلّ العمل اليدوي حتى في الارياف فكانت نتيجة ذلك كله ضعف الابدان وتعرضها للامراض ويزداد هذا الضعف رويداً رويداً بازدياد المكتشفات والمخترعات التي يختصر بها الوقت ويُغنى بها عن التعب

اذا دُعي الناس لمحاربة ، يدافعوا عن وطنهم فاول ما يُطلب منهم ان يكونوا اصحاء اقوياء ولذلك يُنتقون انتقاء ويرفض كل من كان ضعيفاً منهم ويطلب من القوي ان يتولى الدفاع عن الضعيف ولكن نظامنا الصناعي آل الى اضعاف ابداننا كلنا. ففي الولايات المتحدة ٢٨ مليوناً منهم بين ١٨ و ٦٠ وثمانية ملايين ونصف مليون منهم مصابون بامراض في اعضائهم الرئيسة فعلاً او ظهرت فيهم بعض اعراضها ولا يحتمل ان تتوقف هذه الامراض او تشفى الاّ اذا جروا على قوانين الصحة في معيشتهم. ومعلوم اننا اذا نظمنا جيشاً كبيراً للدفاع عن الوطن وجب ان ننظمهُ من هذه الطائفة طائفة العمال ومن اتوا بائهم لا من ضعفائهم واساليب الحرب الحالية تستلزم ان يكون الجندي على تمام القوة البدنية والعصبية لكيف يصلح لها رجال الفوا القعود والسكون ولم يتمرنوا قط على تجشم المشاق

أُخذ في الصيف الماضي جماعة من اهالي بتسبرج ليسيروا سير الجنود فوصف بعضهم ذلك السير قال

« سرنا سيراً حثيثاً مسافة اميال وديبنا على الارض كما يفعل الجنود في ميدان القتال الى ان أُصبنا بالدوار من شدة الاعياء . فان مَن يزحف على بطنه مسافة ميل او يعدو حاملاً ٣٨ رطلاً وهو يطلق بندقية ثقلها ثمانية ارطال بعد ان يكون قد قطع مسافة طويلة لا يكون عمله الاّ شاقاً ولو لم تتفجر القنابل فوق رأسه

« والاعتماد هنا على القوة البدنية وقد ثبت لنا حينئذٍ ان هذه القوة تنقصنا كأمة فان جماعات كانت منتقاة من المتصارعين ولاعبي الكرة والصولجان وكرة القدم والاسابورة صيادي الوحوش الضارية وامثالهم وقد مُرّنت على الحركات العسكرية شهراً كاملاً ومع ذلك لم تستطع ان تسير كلها اكثر من عشرة اميال ولكن الفرقة الثلاثين من الجيش النظامي سارت حينئذٍ ٣٢ ميلاً ووصلت وموسيقاها تعزف ولسان حالها يقول هكذا يكون الرجال »

فان كان الرجال الاشداء الذين تطوّعوا وقرنوا شهراً كاملاً لم يستطيعوا ان يجاروا الجيش النظامي بوجه من الوجوه فكم من الزمن يلزم لتمرين عامّة السكان الضعاف الابدان على مجاراة الجيوش النظامية ومحاربتها

واساليب المعيشة الحالية قد اضعفت اعضاءنا الرئيسة القلب والشرايين والكليتين واعضاء الهضم . فكثرت الوفيات الناتجة من ضعف هذه الاعضاء وهذا يدل على ان الضعف اخذ يستولي على الامة كلها ولا بدّ من المبادرة الى مقاومته

وقد قلّ عدد المواليد ولكن ما كسبناهُ بتقليل موت الاطفال لا يوازي ما خسرناهُ بقلة المواليد . واقوى اسباب هذه القلة الاحجام عن الزواج فقد ظهر بالاحصاء الاخير ان عندنا ٧ مليونًا في سن الزواج من الرجال والنساء وهم غير متزوجين فيجب الاهتمام بذلك وبكل ما يصلح النسل

ثم لخص الخطيب ما ذكرهُ في هذه الخطبة وما لم يذكرهُ فيها من الدلائل الدالة على ضعف الامة الاميركية ناظراً الى غرض واحد وهو المبادرة الى تلافي هذا الضعف وتقوية الامة لا لكي تعيش عيشة هادئة مطمئنة ولا لكي تزيد راحتها ورفاهتها ولا لكي تكون قدوة لامم الارض في إجراء العدل والانصاف بل لكي تستطيع ان تقهر غيرها اذا حاول الاعتداء عليها

بلاد يزيد سكانها الآن على مئة مليون من النفوس وهم من اغنى الناس واعلمهم وامهرهم يقف رئيس جمعية علمية فيهم ويخطب خطبة طويلة مفادها التأهب للحرب

لا حول ولا قوة الاّ بالله اين خطب رؤساء المجامع العلمية التي لم تكن تشير الى الحرب بكلمة بل كانت تدور حول ابعاد النجوم وتسلسل الحيوانات وتولّد قوى العقل وتحوّل قوى الطبيعة ونشوء الاديان وتواريخ الامم وعادات الشعوب وعوادي الادواء واساليب الشفاء ووسائل الانتقال وجواهر المادة ونظام الكون

اين خطب مؤتمرات السلام التي كانت تنيفا يوم تزول فيه الحروب وتنقطع الخصومات ويفصل في كل خلاف بين الامم بالتحكيم الى ان يستولي الاخاء العام على نوع الانسان

اين مواعظ الكنائس والمعابد التي كانت تعلّم الانسان ان يحب قريبهُ كنفسهِ وان الناس كلهم اخوة من دم واحد ويجب ان يعامل كل احد غيرهُ كما يريد غيرهُ ان يعاملهُ

اين تعاليم الحكماء والفلاسفة ومشترعي الاديان . ماذا اصاب نوع الانسان في هذا العام والذي قبلهُ . ماذا فعلت المانيا بعقول الناس . أكان كل الفضلاء في العصر الماضي والعصور الغابرة منافقين مخاتلين يبسطون طلاءً كاذباً على نفوس وحشية ويلبسون ثياب الحملان و بواطنهم ذئاب خاطفة . معاذ الله . ولكن وباء معدياً تولّد في المانيا وجنوناً مطبقاً نشأ فيها وترعرع وانتشر منها الى كل اقطار المسكونة كما ينتشر الطاعون اوكما تنتشر بعض انواع الجنون . ولا بدَّ من ان يفيق الناس من سكرتهم و يروا ما فعلوا بعضهم ببعض فيجدوا انهم يتقاتلون على عرَض فانٍ وان غاية ما يصلون اليهِ ويبقى لهم اشبار من الارض يضطجعون فيها

الانسان ازاء المدنية[1]

ايها السادة

عندما وقفت هذا الموقف منذ خمس سنوات ما كنت اظن انني ساعود اليهِ اليوم ولكن الجمعية الكريمة رضيت عني على ما يظهر فلم تنسَ دعوتي الى حفلاتها التالية عاماً بعد عام ولم تبرح حتى اضطرتني الى الخضوع ايضاً هذه المرة فعدت اليها شاكياً منها شاكراً لها . بل كيف اشكو منها ولدهرٌ في الشوق اليها واليكم يا كرام طنطا بثثت اشهد عن كثب فلاحها واظهر اعجابي بثباتها ومع الاسف العظيم ان آمالي لم تتحقق تلك الآمال التي عقدتها في خطابي السابق ان تكون هذه الجمعية مدرسة للشرقي يتعلم فيها قيمة الاتحاد فينشيه بها . فقد مرَّت السنون كالحلم وليس لهذه الجمعية اخوات في القطر المصري تنشأ مثالها للاحسان فتجمع تحت لوائها من كل عقيدة ويمشي فيها الناس جنباً الى جنب على اختلاف المذاهب والاديان ولم ارَ حتى الساعة في غير طنطا من تجرأ ان يظهر في هذا المظهر كأنهُ كُتب على الشرقي ان يظل في انقسام الى آخر الايام

(١) خطبة القاها حضرة الدكتور خوري قبض في الحفلة السنوية لجمعية الاتحاد والاحسان السورية في طنطا في ٤ مايو سنة ١٩١٦